في الصـــــداقة والصديق

الدكتور أحمد فؤاد الاهواني

وقع الحضر في كشكوله من (الرسالة) يقول إنه لاحظ أنني كلما أخرجت كتابا كتب عنه الأستاذ عبد الغني حسن ، وأن العكس صحيح ، يريد أنه كلما أخرج كتابا أو ديوانا كتبت عنه . والتوقيع على إيجازه وإن كان صحيحا يحمل معنى التعجب ، أو هو خبر ينطوي على استفهام، وإشارة تحتاج إلى تفسير وبيان.

وبيان هذا التبادل أنه دليل على الصداقة أو هو آية الأخوة . ولكاتب التوقيع أن يعجب في زمن أصبحت فيه الصداقة أندر من الكبريت الأحمر ، فإذا رأى أحد شخصين قد ائتلف قلباهما على المحبة ، وقامت العلاقة بينهما على المودة ، لفت ذلك نظره لغرابته وشذوذه ، وبعده عن المألوف ، وانفراده من المتعارف الشائع المعروف . ولقد حكى القدماء من الحكماء أن المستحيلات ثلاثة : الغول والعنقاء والخل الوفي . فإذا كان الخلان الأوفياء قد عز وجودهم في قديم الزمان ، فوجودهم أعز اليوم وأندر ، مع فساد الزمان، وانتشار موجة المادية، والتمسك بأسباب الدنيا ومتاعها وزينتها ومنافعها .

فإذا عثر الإنسان على الصديق كان كالذي اهتدى إلى المستحيل وعثر على كنز ثمين . وقد قوموا الناس بالمال ، فوزنوا مهراجا الهند ، وقدموا المهور إلى الحسان ، ولكن الصديق الحق إذا أخلص وبرئ عن المصلحة ، كان أثمن من الذهب فلا يقومه مال ولو عد باللايين . وللعامة من الناس تشبيه مادي طريف ، قالوا : الناس أجناس ، ذهب وفضة ونحاس ، أما الإنسان الذي كالذهب فكلما عبر سنوات الزمان زاد جوهره ولم تنقص نفاسته ولم يذهب بريقه أو ينطفئ رونقه . وأما الإنسان الذي كالنحاس فإنه يخدعك بمنظره وهو المدن الخسيس تطليه فلا يلبث أن يصدأ ، وتجلوه فيأبى الجلاء ويعود إلى الانطفاء ، فإذا اتخذت من هذا الصنف صديقا خدعك ببريقه وغشك بمنظره . باطنه على خلاف ظاهره ، وباطنه هو الذي يدفع إلى الانطفاء والصدأ ، وهذا هو جوهره لا يستطيع عنه حولا، أو تحيزته لا يستطيع لها تبديلا. ولذلك كان العثور على الصديق الصادق عسير المنال لقلة الذهب وكثرة النحاس، والناس كذلك منهم النفيس ومنهم الخسيس .

والصديق الذي كالذهب تعتز بصحبته ، وينفعك في محنتك ، ويقيل عليك في وقت شدتك ، ثم تأمن إلى جانبه وتركن إلى مودته ، وتفضي إليه بجملة نفسك وأنت مطمئن إلى حفظ السر وحمل الأمانة ، فإذا برئت النفوس من المنافع ، وتخلصت من

التاريخ الإسلامي » ذكر فيه الكتب العربية والغربية المخطوطة والمطبوعة التي تبحث في تاريخ الاسلام . ثم نشر كتاباً عن أخبار الصين والهند بالعربية وترجمه إلى الفرنسية . وأرسل إلى المطبعة منذ شهور ترجمة لأحد مؤرخي حلب في القديم. والكتاب ما يزال في سبيله إلى النور ، بينما كان مترجمه يقاسي غصص الموت ويتوجه إلى الخلود .

وكأني بالعالم المؤرخ - وهو يبلغ الخمسين من عمره - قد أنهكه الدرس وحطمه الجهد ، وأخذت منه المؤلفات ما أخذت من عباقرة الباحثين فنال منه المرض ، ولم يثنه نصح الأطباء ورفق الأصدقاء حتى اختطفه الموت وهو يترجم ويصحح كتبه عن الشام والمسلمين ، فقضى « وملازم المطبعة » بين يديه وترجمة التاريخ الاسلامي تحت وسادته ، وأغمض عينيه على منظر الشام الذي صنع بزين غرفته وهو أشد ما يكون اطمئناناً إلى أنه مات بعد أن قضى للربوع التي أحب ماوجب ، وللتاريخ الذي عشق ما استطاع .

فبكاه أصدقاؤه الذين عرفوا فيه التسامح والاخلاص ، وبكاه طلابه الذين رأوا فيه دماثة الخلق وتواضع العلم وتفاني الأستاذ. ولاشك في أن حلب الشهباء ستجزيه أحر ما عمل ، وتفيد من درسه ، وتقتبس من بحثه، فتكمل ما لم يكمل من نص ، وتنشر ما لم يتم من مخطوط . ولاشك في أن المؤرخين والباحثين عندنا سيجدون في سيرته سيرة تحتذى وأسلوباً يقتفى وطريقة تتبع .

القاهرة — الدكتور سامي الدهان

الأطماع وتجردت عن الأهواء ثم آثرت الإيثار ، اتصلت النفوس وائتلفت الأرواح ، وهذه هي الصداقة في أعلى مراتبها ، وأفضل صورها ، وما ينبغي أن تكون عليه .

والصداقة فضيلة تأمر بها الأخلاق وتحث على توثيقها . وأفضل الأخلاق ما طلب صاحبها الفضائل لذاتها ، ولأنها واجبة في نفسها كما ذهب إلى ذلك كانط الفيلسوف الألماني . فنحن نعمل الفضائل طلبا للمنفعة أو اللذة أو السعادة ، وبذلك تخضع الفضيلة لغاية أخرى فينصرف المرء إلى تحقيق هذه الغاية ولو امتطى ظهر الرذائل وصورها في صور الفضائل . لذلك ينبغي أن تطلب الصداقة لذاتها ، وحينئذ يحس المرء بلذتها .

والصداقة من أقوى الروابط التي يقوم عليها دعامة المجتمع ، فإذا شاعت في أمة تماسكت ، ثم قويت لتماسكها ، ثم علا شأنها لقوتها ، فتصدرت سائر الأمم لعلو شأنها والاعتراف بمنزلتها . وكان هذا هو حال الأمة الإسلامية في بدء نشأتها . وأنت تعلم أن الدعوة الإسلامية قامت على اثنين من الرجال ، النبي عليه السلام ، وأبي بكر ، الذي سمي لصدق صداقته وفرط تصديقه بالصديق دلالة على المبالغة ، فقالوا أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه . وإذا أطلعت على سير الرجال من أهل الإسلام في عزه وعنفوانه ، وفي أوجه وعلوه وسلطانه ، يوم أن كانت أوربا تعيش على علوم الشرق وتغترف من عمرانه ، رأيت أن الروابط بينهم قامت على الصداقة ، وعلى التفاني والوفاء ، وعلى الإخلاص والإيثار ، والإيثار أعلى مراتب الصداقة . حكت كتب القدماء أن عشرة من المسلمين وقعوا جرحى في قتال في إحدى الغزوات ، وكانت مع أحدهم شربة ماء لا تكفي إلا واحداً لتهبه الحياة ، فآثر بها صاحبه ومات ، وآثر بها الثاني صاحبه ومات ، وهكذا حتى مات الجميع .

ونحن نرى أن الجماعة تحتاج إلى رابط يربط ما بين أفرادها ، وليست هذه الروابط مادية يمكن أن ترى ، فليس هناك حبل يربط بين فلان وفلان ، ولو كانت الروابط حبالا لتقطعت وبقيت الصداقات الصادقة لأنها أوثق ، ثم لا تبلى مع مرور الزمان بل تقوى على الأيام .

ومن المشاهد أن الشرق منحل الأواصر ، كثير التنابذ ، يشيع الحسد بين الناس ، وتشتد العداوات الشخصية حتى لتشغل أوقات الناس وتصرفهم عن المصالح العامة . وهذه هي أخلاق الجاهلية الأولى التي جاء الإسلام ليحل محلها المودة والسلام

والصداقة والعداوة مما ينشأ مع الطفولة ، ويبث بالتربية ، ويعالج بالتهذيب والصداقة التي ترتفع إلى منزلة الأخوة تظهر في الأسرة بين الأشقاء ، وتظهر في المدرسة بين الأنداد ، ولكننا في مصر قد أهملنا التربية فتركنا الحبل على الغارب ، أو سلمنا الأمر لله ، مع أن الله قد أودع فينا العقل للتمييز . وقد أثبت مذهب التحليل النفساني أن الأحوال النفسية التي تصاحب الناس في كبرهم تمتد جذورها إلى زمن الطفولة الأولى . والصغار في بيوتنا في شقاء لجهل الآباء والأمهات بأصول التربية وأسرار النفس ، فهم يمنعون الطفل من اللعب ، ويحسبونه في البيت ، ويكثرون من ضربه وإيذائه وانتهاره فينشأ على الحقد والبغضاء ، ثم يغرون الأخ بأخيه ، ويفضلون الشقيق على شقيقه فيظهر في أنفسهم الحسد وهو شر ما يبلى به الإنسان ، وهو آفة الصداقة

المدرسة المصرية دار تحضر الطالب للامتحان والحصول على الشهادة وليست المجتمع المثالي الصالح الذي يؤلف بين القلوب ، ويقوم فيه التعليم على المشاركة والتعاون بين التلاميذ . وقد سمعنا عن طلبة يأبون إعطاء مذكراتهم لزملائهم نفاسة وحسدا وانفراداً بالامتياز ، فكيف ترتقب من المدرسة أن تنشىء جيلا من الأصدقاء وهذه حالها ؟ وكيف نزعم أن الروابط بين أفراد الشعب وثيقة مع انعدام الصداقات ؟

أحمد فؤاد الأهواني

أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية
العصر بأسلوب قوي ، ومستيعاب موجز وتحليل مفصل
واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى
طبع اثني عشرة مرة في ٥٢٥ صفحة
وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد